سعيد كما عرفته

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي
السنة السادسة - العدد 1189 الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس سنة 1943

الصديق بن العربي

في مثل هذا الشهر من السنة الفارطة رزئ المغرب في أحد أبنائه البررة، فكان الوقع في النفوس أليما لهذه النكبة والمصاب عظيما لهذه الرزية التي فتتت الأكباد، وظلت صورها تتردد في مخيلتنا كلما ذكر سعيد أو تلمسنا أثرا من آثاره الخالدة التي عاش لها ومات في سبيلها. واليوم تعاودنا هذه الذكرى وستظل تعاودنا إلى ما شاء الله، فنجد فيها موعظة الماضي وعبرة الحاضر، وتوحي هذه الذكرى إلى نفوسنا صورا من (حياة ذلك الصديق الذي قام بواجبه خير قيام) والذي كرس حياته وشبابه في سبيل تحقيق آمال كانت وما تزال آمال شعب في فجر حياته يثوق للنهوض والانبعاث. وإذا كانت هذه الذكرى بعد مرور سنة على وفاة الفقيد الكريم تذكرنا بشيء فهي تذكرنا بتلك الصداقة الروحية الموطدة الدعائم التي كان الفقيد يغدقها على كل من اتصل به أو شاركه في عمل أو اتحد معه في خطة أو مبدإ ، ولم تكن هذه الصداقة مبنية على أسس واهية أو تمت بصلة إلى النفعية والمادية التي كان الفقيد يبتعد عنها ويزهد في تلمسها، بل كانت صداقة روحية أساسها الاتحاد في الرأي والشعور بالمسؤولية والقيام بالواجب لمصلحة البلاد. هذه المزايا وهذه المظاهر الشريفة وهذه الأخلاق العالية لم تتقمص في سعيد بفضل الاتصال أو على مقاعد المدرسة أو بعد خوضه لمعترك الحياة العلمية، بل نشأت معه فظهرت مبكرة في صباه، وكانت أشعتها تغمر جميع أصدقائه ومعاريفه الذين كنت واحدا منهم، فكان

إعجابنا به في تلك السن يتزايد مع الزمان، وكان وهو أصغرنا سنا يتراءى لنا في حكمة الشيوخ وثبات المجرب للحياة الواثق من نفسه، فكان قدوة لنا في أعمالنا وتصرفاتنا ومربيا كبيرا نقبل على آرائه وإرشاداته في الحياة معجبين بفكره الثاقب ونظراته الصائبة.

ولعل من أبرز آثار الفقيد في أطوار حياته الأولى هو ذلك الإيحاء الذي كان يتمكن بواسطته من جلب قلوبنا وأنفسنا إليه، فكان هو المحور لكل حديث وهو قطب دائرة الأعمال الصغيرة التي كان يراها أفضل الوسائل لتدريبنا على الواجبات المقبلة. ويتجلى هذا النشاط في الفقيد برغبته المبكرة في الكرع من حياض العلوم والاطلاع على وسائل التثقيف والنهوض، فكان يدرس ويناقش ويطالع ويبدي مختلف الآراء والأفكار في أعمال ومشاريع كنا نراها من مداعبات الخيال ومن أبعد ما يتوقع، فكان سعيد وهو في تلك السن المبكرة يفكر في شؤون المغرب ومستلزمات نهضته في صحافة وتعليم وإصلاح؛ وشغله التفكير بهذه المسائل وانكبابه على الدراسات ومطالعة الكتب والصحف عن كل شيء، فكان يتوخى الوحدة والانعزال مكتفيا بالقليل من الأصدقاء عن الكثير من المعجبين به، مبديا رغبته في التعاون معهم على الأعمال المجدية، مبتعدا بهم عن سفاسف الأمور وتافهها. هذا الطموح الذي كان يلازم الفقيد وهذه الرغبة في العمل المجدي التي كانت تقض عليه مضجعه لم تكن لديه فكرة تتصل بالأمل والخيال فقط، بل عمل على إبرازها لحيز الوجود، فانتقى نخبة من الأصدقاء وبث فيهم روح العمل واليقظة، فأنار لهم السبيل وقادهم إلى ميدان العمل المثمر، وكون منهم طائفة عملت لتثقيف نفسها بنفسها وقامت إذ ذاك بأعمال كانت طفيفة في البداية ولكنها كانت عظيمة الأثر في توجيه حياة كل فرد من أفرادها توجيها يتفق والصور والنماذج التي وضعها الفقيد لما يجب أن تكون عليه الأعمال التي اختمرت في ذهنه في مراحل الحياة المقبلة.

ظل سعيد يعمل طوال تلك السنين الأربع التي قضيتها في رفقته لمواصلة الدرس والاستطلاع والكتابة والتحبير والتدرب على مهنة الصحافة التي كانت نفسه تتطلع إليها

حتى إذا أعد العدة للرحلة والاغتراب في سبيل طلب العلم كان مزودا بمعلومات وتجاريب ظلت نبراسا له في حياته سواء بأوربا أو بالشرق، ولم يكن الفقيد صورة لذلك الشاب الذي تغمره مدنية الغرب أو يستسلم لأطاييب الشرق، بل كان يفكر في الواجبات الملقاة على كاهله نحو بلاده، فكان وهو بعد على مقاعد المدرسة يتطلع بلهف وشوق إلى ما يصله من أنباء الوطن والأصدقاء، ويبث في رسائله المتتابعة إلى أصدقائه كل ما يختلج في نفسه نحو بلاده ومستقبلها، مبديا آراءه وخططه المقبلة التي استمدها من روح النهضة المنبعثة في الشرق، ومعبرا عما يكنه لبلاده من حب واعتزاز.

ولم تكن إقامة الفقيد في ديار الغربة مقتصرة على الدرس والتحصيل فقط، بل كان يعمل بكل ما في وسعه على الاطلاع والاستفادة من مناهل العلم والاستزادة من أبواب المعرفة، متصلا بطبقات الأساتذة والطلاب، ممثلا النبوغ المغربي أفضل تمثيل، مغتنما الفرص لإظهار بلاده بالمظهر اللائق بها لدى بعض الأوساط الشرقية الجاحدة، متدربا على شؤون الصحافة التي ملكت لبه والتي كان يراها أفضل الوسائل وأنجعها لبث روح النهوض والقضاء على كابوس الجهالة والخمول، مهيءا نفسه لحمل رسالتها المقدسة.

عاد الفقيد إلى المغرب بعدما اغترف من مناهل العلم العذبة ما يساعده على أداء مهمته، وبعدما حنكته التجاريب واطلع على العوامل التي هزت الشرق وساقته في تيار النهوض والانبعاث، فوطد العزم على تدشين مرحلة من حياته حافلة بالأعمال، متجهة في السبيل الذي رسمه لنفسه منذ سنين.

وهكذا اتصل سعيد بأصدقائه من جديد، وأخذ يعمل ليل نهار لتكوين حركة كما كان يعبر عنها، فاتصل بالأشخاص واختلط بمختلف الطبقات وانغمر في لجة العمل، فكون حوله دائرة من الأصدقاء الذين قدروا فيه روح الطموح والتوثب ومقدرته الكبرى، فقرع باب العمل المجدي الذي انفتح له عن آفاق بعيدة المدى.

بهذه الروح وبهذه العزيمة الوثابة وبهذه الإرادة القوية وبهذه الأخلاق والآداب العالية

دخل الفقيد لميدان العمل معتمدا على نفسه وقوة روحه فأبلى البلاء الحسن وناضل وجاهد في سبيل الدفاع عن الأفكار والمبادئ التي كرس حياته لها.

ولن نحاول في هذه الكلمة تعداد آثار الفقيد في مختلف ميادين النشاط التي كان يوجه عنايته إليها، فهى عالقة بأذهان أصدقائه المقربين الذين يقدرونه بما بذل من جهود وبالنتائج التي تمخضت عنها. على أن بعض هذه الآثار لم تكن في ميدان الصحافة التي ثبت قوائمها سوى إحدى الوسائل التي كان الفقيد يعتمد عليها في الوصول إلى ما تصبو إليه نفسه من إصلاح وتقويم، ولقد كان بنظره الثاقب يرى أن الصحيفة هى العماد الأول الذي ترتكز عليه نهضة البلاد وعليها يتوقف إنقاذ الشعب من براثن الجهالة والخمول، فصرف غايته إلى تكوين صحيفة يومية تطورت حسب تأثير الأحوال والظروف، ثم ألحق بها تلك الأعداد الممتازة التي كانت مرآة صادقة لبوادر النهوض الأدبي والانتعاش الفكري بالمغرب، وعمل في آخر أيامه على إيجاد مجلة أدبية راقية ففاجأته المنية قبل أن يعد العدة لاكتمال المشروع.

وفي هذا الجو كان الفقيد جذوة نشاط متقد يصرف شبابه وأوقاته وماله في سبيل إنجاح خططه ومشاريعه الفتية، واستطاع بجده واجتهاده إيجاد أسرة أدبية انتقاها وأشركها في العمل، فوفق في ذلك التوفيق كله، وظهرت آثاره وآثارها واضحة في تلك الحركة الأدبية التي خرجت من العدم فأسفرت عن فتح عهد جديد في تاريخ الإنتاج الأدبي بهذه الديار، وكانت محاولاته لخلق جو المعرفة وحب الاستطلاع موفقة ومكللة بالنجاح.

تلك بعض مظاهر النشاط لفقيدنا الذي نحتفل اليوم بذكراه، وهى ذكرى تنطوي على تقدير واحترام وإعجاب نحو ذلك الراحل الكريم الذي اختطفته يد المنون فعصفت به قبل الأوان وأصيب النهوض المغربي في الصميم قبل أن تينع تلك البذرة الطيبة التي تعهدها الفقيد لتوتى أكلها بعد حين. ففي ذمة الله أيها الصديق العزيز! وعزاء لبلادك ولأصدقائك البررة الذين كنت رائدهم في الحياة ولا زلت قدوتهم بعد الممات.